الإمام الغـــزالى
وسائل معارفه كيفية تحصيلها ودرجة صدقها

دكتور /مبروك عبد العزيز عبد السلام
المدرس بقسم العقيدة والفلسفة - كلية الدراسات الإسلامية
جامعة الأزهر

الإمام الغـزالي
وسائل معارفه كيفية تحصيلها ودرجة صدقها (*)

المقدمة

الحمـد لله رب العالمـين، خلـق الخلق وفضل الإنسان علي هذا الخلق بالعقل وأمـره بإعمال عقله فى التأمل فيما حواه هذا الكون من بديع الخلق ودقة الصنع ليصل من وراء ذلك كله إلي وجود الخالق «جل وعلا».

والصلاة والسلام علي خير خلق الله أشرف النبيين وخاتم المرسلين، ورحمة الله تعالى للعالمين وعلي آله وصحبه ومن سار علي دربه، واهتدى بهديه إلي يوم الدين.

أما بعـد

فـإن معارف الإنسان لا تكون إلا بالعقل وليس بين أيدينا شيء واضح دقيق عـن حقيقة العقل والذي يبدو لي أن محاولة معرفة حقيقة العقل معرفة دقيقة علي جانـب كبير من العسر والصعوبة، ولكن من الممكن أن نقول ونحن مطمئنون أن العقـل جوهر مجرد؛ لأننا لو أنكرنا كون العقل من المجردات وأثرنا حوله ضجيج الماديـين بقولهم إن العقل مادى يفرز الأفكار كما يفرز الكبد الصفراء. فإن السؤال الذي يفرض نفسه، من أي مادة هو؟.

ولعـل فـي هـذا السؤال ما يفسر لنا ضعف اتجاه الماديين، في هذا الجو الفكـرى الذي يحار فيه الإنسان إزاء العقل وكيفية تفكيره، حسبنا أن ندرك الصلة بين العقل والوحى، وحرصا منا علي معرفة هذه الصلة بأقصى ما يمكن من الدقة والتمام يجب أن نحدد هذا الكلام قليلا، وفي سبيلنا إلي هذا التحديد نقول:

(*) الدكـتور/ مبـروك عـبد العزيـز عـبد السلام عبد الله - المدرس بقسم العقيدة والفلسفة- كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة - جامعة الأزهر .

مـــا المعـــارف العقلـــية التي يجب أن يقف العقل عند حدودها؟ وما الحقائق الدينـــية التـــي يجب أن يؤمن بها عن طريق الوحى المعصوم ؟ وفي ضوء الهدف الذي تمثلناه من ربط الفكر بالعقيدة نجد أن هناك مفكرين كثيرين جديرين بالدراسة والتحلـــيل، إلا أن الغزالى الأشعرى هو الأساس الذي يجب أن نقف عنده وقفة متأنية طـــويلة تـــنفذ إلي أعماق فكره، لأن حجة السلام قدر عليه أن يعيش في فترة غلب فيها الفكـــر الفلسفى والسعى وراء البراهين الأرسطية التي نبتت في بيئة وثنية، وكان ظهور الإمـــام الغزالـــى علـــي مسرح الفكر يمثل انصرافا وترجعا لفكر المسلمين عن التيار الفلســـفى اليونانـــى الذي حاول من خلاله متفلسفة الإسلام النيل من العقيدة الإسلامية، فســـعى الغزالـــى المفكر إلي تأكيد مفاهيم الإسلام من خلال المنطق العقلى الذي ينطلق من النص الدينى الموافق دوما لصريح المعقول.

والغزالـــى المفكـــر لم يقف عند حد التراث والتقوقع فيه بل أضاف إلي فهم الســـلف فهما جديدا لتصبح حجته أقوى من أفكار الفلاسفة فقد طور الإمام الغزالى نفســـه ولـــم يغيـــر جلـــده ليتـــيح لفكره قوة القضاء علي التيارات المخالفة للعقيدة الإسلامية . ونحن نميل إلي هذا الفهم العميق الذي يربط الفكر بالعقيدة.

ولعـــل مـــن الدوافـــع التي حفزتنى إلي الكتابة في هذا الموضوع أن الإمام الغزالـــى أوســـع المفكرين أفقا وأغزرهم مادة وأبعدهم عمقا وأقربهم إلي أن يكون نموذجا حيا لما وصلت إليه الثقافة الإسلامية في شتى نواحيها، وأضف إلي ذلك أن بعـــض الأفكار قد تثبت وترسخ، وقد تتجدد، وقد تنتهى بانتهاء زمانها، لكن أفكار الإمـــام الغزالى لن تنتهى بأى حال من الأحوال، والسر ينطلق من أن أفكاره تستمد قـــوتها مـــن عقـــيدة الإسلام المعصومة وتخضع لحقائقه، لهذا السبب قدمت علي موضـــوع بحثى وعقلى متوثب بعزم وتصميم أن أجعل ((فلسفة الإمام الغزالى في وســـائل معارفـــه وكيفية تحصيلها ودرجة صدقها)) غاية غايتى، وحب لموضوع بحثى فتح أمامى المغاليق.

ولقد جعلت بحثى في مقدمة ، وثلاثة فصول ، وخاتمة :

فـــي المقدمة : ذكرت أسباب اختيارى هذا الموضوع، وقيمته العلمية، ومنهجى في بحثه.

الفصل الأول : يدور الحديث فيه حول ((العقل في القرآن الكريم)) وكان مما لا يمكـــن رفضـــه عـــند الجميع تصريح القرآن الكريم بوجوب اســـتعمال العقل، وإذا كان العقل شيئا خيرا فالخير كل الخير في معرفة آفاقه وحدوده.

الفصل الثانى : وجرت رياح الحديث فيه إلي:

سـيرة الإمـــام الغزالى الفكرية، صببنا الضوء فيه علي حياة الإمام الحافلة بالملاحظات العلمية العميقة.

الفصـــل الـــثالث : تناولنا فيه براعة تكيف الوسائل مع الغايات من خلال ((وسائل معارف الإمام وكيفية تحصيلها، ودرجة صدقها)) .

وكـــان انتقال الإمام من وسيلة لأخرى نتيجة أفكار عقلية كان كل شيء يحتمها.

الخاتمة:

ذكرت فيها أهم ما افتقدت إليه حياتنا الفكرية ووجدته عند الإمام.

منهجنا في البحث :

وقد اعتمدت في دراستى علي أكثر من منهج:

١- **المنهج التاريخى:** الذي يقوم للتعرض لجذور الفكر عند الإمام الغزالى.

٢- **المنهج التحليلى:** الذي يرد الفروع إلي الجذوع ويرد الجذوع إلي الجذور.

٣- **المنهج التعليلى:** الذي يهدف إلي التعليل بعد التحليل.

٤- **المنهج المقارن:** إذ عمدت إلي مقارنة فكر الإمام بفكر غيره من العلماء في مواطن كثيرة من البحث.

٥- **المنهج النقدى:** الذي يقوم علي نقد الفكر المخالف للنصوص الشرعية.

٦- **المنهج الاستنباطى:** الذي يعتمد علي استنباط النتائج من المقدمات.

الفصـــل الأول

العقـــــل في القـــــرأن الكريـــــم

ويشتمل هذا الفصل على :

تعريف العقل في اللغة والاصطلاح .

آراء العلماء فيه .

محله .

العقل في القرآن الكريم .

تمهيد

ألـــيس أرقـــى ما تزدهر به الحياة الإنسانية ألا وهو العقل، إن تكريم الخالق ((جل وعلا)) للإنسانية بالعقل هو تفرد لها علي سائر مخلوقاته، لأن كل شيء في الوجود يتطلب تفسيرا العقل أداته. فالعقل في النصوص الشرعية قوة عظيمة آثاره بادية لنا في نجاح محاولاته الاستدلالية علي وجود البارى ((جل وعلا)) بل إن ما تظنه الإنسانيه في تفكيرها قد يتغير وهذا لا يضير واحدية الحقيقة – الله جل وعلا – لأنه لا ظل بغير ضوء.

والتفكيـــر بلا منهج الخالق يصيب العقل بالعقم والتفكير بمنهج الخالق ، يعقم الفكـــر لأن كـــل صانع أدرى بصنعه والتمرد علي هذا المنهج لا يكتب له النجاح والعمـــل بـــه يجعـــل العقل يسترد للمعايير المنطقية كل حقوقها وعبارة ((اللهم إلا العقـــل)) منذ قيلت ببساطتها وقيمتها كان معناها وجوب الارتقاء به إلي درجة عليا كـــى يجـــد الثبات الذي بدونه يسقط الفكر في مهاوى الوهن، والنصوص الشرعية تحدد للعقل مجال دراساته ونجاحاته وثمراته.

وهـــذا مـــا أردنا أن نلفت النظر إليه وسط نداءات أعلى رنينا واشد جاذبية تدعو إلي عمل العقل بلا منهج ربانى، وسنحاول بأقصى ما يمكن من التمام والدقة معرفة المنهج القرآنى في توجيه الفكر كى نفهمه ونستخدمه.

العقل في اللغة والاصطلاح

نـــبدأ بشيء من تحليل اللفظ في ظاهره قبل أن نتعرض لما قد ينطوى عليه ذلك اللفظ من أبعاد فاللفظة المحورية هنا عقل، ومعناها ((**المنع والحد – من عقل البعير إذا منعه بالعقال، وسمى بذلك لمنعه صاحبه من العدول عن سواء السبيل**)) (١).

علـــي أن صاحب لسان العرب يضيف إلي ذلك أن ((عقل فهو عاقل وعقول مـــن قـــوم عقلاء ابن الأنبارى: رجل عاقل: وهو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وقيل: العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أخذ من قولهم قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام.

والمعقول: ما تعقله بقلبك، والمعقول: العقل، يقال: ماله معقول أي عقل، وهـــو أحـــد المصادر التي جاءت علي مفعول كالميسور والمعسور... والعقل: التثبت في الأمور)) (٢).

وإذا جاوزنا ميدان اللغة وألقينا نظرة علي تعريف العقل في الاصطلاح فإننا نجد جماعة من علماء العقيدة يقولون إنه من قبيل العلوم، وعرفوه :

((بأنـــه العلم ببعض العلوم الضرورية كالعلم بوجوب التحيز للجرم (الجسم) واستحالة خلو الجرم عن الحركة أو السكون، وجواز إحراق النار لما مسته، وعلي رأس القائلين بهذا الرأى إمام الحرمين)) (٣).

وننتقل إلي جماعة أخرى من علماء العقيدة قالوا: ((إنه غريزة فطرية يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات)) (٤).

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى، الجزء الأول ص٧٦.

(٢) لسان العرب لابن منظور، المجلد الرابع من ش إلي ع، مادة (عقل) ص٣٠٤٦.

(٣) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى، الجزء الأول ص ٧٥.

(٤) التوحـــيد فـــي ضـــوء العقل والنقل ص٤٧٣ الأستاذ الدكتور مبارك حسن حسين إسماعيل .

وعرفه الشيرازى: ((بأنه صفة يميز بها بين الحسن والقبيح)) (١).

وقد عرفه المحاسبى: ((بأنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية)) (٢).

وعلي منوال ما قلناه في مقدمة البحث عن صعوبة تعريف العقل يرى فريق من العلماء أنه : ((لطيفة ربانية لا يعلمها إلا الله تعالى. فمن حيث الجسد تسمى روحا، ومن حيث شهوتها تسمى نفسا، ومن حيث تفكيرها تسمى عقلا، فالثلاثة متحددة بالذات أي من حيث كونها ((لطيفة ربانية)) ومختلفة بالاعتبار أي باعتبارها تفكر أو تشتهى أو تحيا)) (٣).

ولابد هنا من الإشارة إلي أن هذا التعريف للعقل نظر فيه إلي جانبين: جانب ذاتى وجانب وصفى أو وظيفى له.

الفلاسفة والمعتزلة عرفوه بأنه : ((جوهر مجرد يدرك به الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة))(٤).

الإمام الغزالى: عرفه بأنه ((**غريزة فطرية تشرق علي النفس عند سن التمييز ثم تنمو شيئا فشيئا بالتدرج إلي أن تتكامل بقرب الأربعين سنة**)) (٥).

وقد شبه الإمام الغزالى العقل بنور الصبح يظهر بالتدريج شيئا فشيئا بالزيادة إلي أن يكتمل بطلوع الشمس.

ويرى الإمام الغزالى أن التفاوت فيه بين الناس لا سبيل إلي جحده.

---

(١) الأسفار الأربعة، تأليف د/ على عبد الواحد وافى ص ٩، ط ٢.

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى، الجزء الأول ص ٧٥.

(٣) التوحيد في ضوء العقل والنقل للأستاذ الدكتور مبارك حسن حسين إسماعيل (السمعيات) ص ٤٧٤.

(٤) الانتصار تأليف: الخياط، تحقيق نيبرج ص ٦٤، ط القاهرة ١٩٢٥م.

(٥) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى، الجزء الأول ص ٧٥.

المالكـــية: عـــرفوه بأنـــه ((نـــور روحانى به تدرك النفس العلوم النظرية والضرورية)) (١).

وقـــال المالكـــية: إن محل العقل القلب وله شعاع متصل بالدماغ فالمدرك للعلوم النفس والعقل واسطة لها.

وقال الفلاسفة وبعض الفقهاء: إن العقل محله الدماغ.

ونحـــن نمـــيل لرأى الإمام الغزالى في تعريف العقل، لكننا نرى أن المعرفة بحقيقة العقل غامضة أو ناقصة؛ فليس بين أيدينا معرفة كافية ودقيقة عنه !!!.

العقـــل في النصـــوص الشرعيـــة

أولاً: العقل في القرآن الكريم :

١- دعوة القرآن الكريم إلي النظر:

مـــن يحسن إدراك دعوة القرآن الكريم إلي النظر بمثابة من وقع علي أخطر مفـــتاح للنور العقلى في حياته الفكرية كلها فدقق النظر في هذه الدعوة، تبرز أمام عقلك النقطة المهمة المضيئة التي أردنا أن نلفت إليها النظر وهي أن دعوة القرآن الكريم إلي النظر المقصود بها نظر العقل لا نظر العين فتأمل.

وبعـــد ذلـــك دقـــق النظر ما شئت تجد في مقدمة الحقائق الإلهية قول الله: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(٢).

وها هنا أيضا تجد العلم بالوحدانية التي هي فرع الوجود.

وإن نظـــرة فاحصة لموقف القرآن الكريم من العلماء لترتد إلينا بجواب قاطع لا يدحض ولا يرفض وهذا الجواب هو:

---

(١) التوحيد في ضوء العقل والنقل أ.د/ مبارك حسن حسين إسماعيل ص ٤٧٥.

(٢) سورة محمد الآية: ١٩.

قال تعالى: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾(٣).

وقال جل شأنه: ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾(٤).

والقرآن الكريم لا يفرض الإيمان علي الناس وإنما يعرضه علي عقولهم وقلوبهم، وهذا التوجيه كفيل وحده أن يجعل الإيمان عقيدة.

قال تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾(٧).

والهداية إلي الإيمان طمأنينة تمليها فطرة الإنسان عليه إملاء أشبه بالنور الذي تراه القلوب ولا تراه الأبصار ((فالحقيقة: كما قرر القرآن الكريم أن المعرفة بالله لا تستلزم الإيمان به، وإنما هي طريق من طرقه وقد يتحقق الإيمان بغيرها، وقد تحصل المعرفة ولا يتحقق الإيمان(٨).

---

(١) سورة سبأ آية: ٦.

(٢) سورة الحج آية: ٥٤.

(٣) سورة الأنفال آية: ٤٢.

(٤) سورة المدثر آية: ٣١.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٥٦.

(٦) سورة الكهف آية: ٢٩.

(٧) سورة فصلت آية: ٥٣.

(٨) قضية التأويل في الفكر الإسلامى. المعتزلة – الفلاسفة، الأستاذ الدكتور/ عبد الرحمن محمد المراكبى، الجزء الأول، ط الأولى ص ٤٥، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

المعـرفة العقلـية هي الطريق الأوثق للإيمان بالله لكننا لا نميل إلي القول بأنه الطـريق الأوحـد، وأقـولها علي مضض إنك تجد الرجل برغم علمه وسعة مطالعاته وحـدة ذكائـه يؤمن بعقيدة واضحة البطلان، وعليه فإنا لا نتجاوز الصواب إذا قلنا إن المعرفة العقلية الطريق الأوثق وليس الأوحد.

وهـذا الطريق الأوثق اتخذه القرآن الكريم طريقا للهداية. فيرى الإنسان في كـل خطـوة يخطـوها بعقله في الكون أو بوجدانه في العقيدة أو بإرادته في دنيا الغايات والوسائل إشارة دالة علي وجوده ((جل وعلا)).

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٥).

---

(١) سورة النمل آية: ١٤.

(٢) سورة البقرة آية: ١٤٦.

(٣) سورة الأعراف آية: ١٨٥.

(٤) سورة يونس آية: ١٠١.

(٥) سورة العنكبوت آية: ٢٠.

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٢).

أرأيت عظمة هذه الآيات التي تهدينا والتي تجعلنا ننتقل من بديع الخلق وجميل الصنع وعظمة التدبير إلي المبدع جل وعلا.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

وإذا ما تركنا مجال دعوة القرآن الكريم للنظر إلي ما سواها من سائر الدعوات الأخرى فإننا نجد القرآن الكريم ينهى عن التقليد والمقلدين.

ثانياً : القرآن الكريم ينهى عن اتباع التقليد والمقلدين :

الكلام هنا منصب كله علي الحياة الثقافية، والآيات القرآنية الكريمة تشير إلي كثرة من الناس مقلدين، أغفلوا عقولهم وألغوا أفهامهم وعاشوا بعقول آبائهم علي غير علم وهدى.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة الروم آية: ٨.

(٢) سورة الذاريات آية: ٢٠ - ٢١.

(٣) سورة البقرة آية: ٢١٩.

(٤) سورة البقرة آية: ١٧٠.

(٥) سورة الزخرف آية: ٢٢.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(١).

والعقــل قلما يترك نفسه ليستريح فهو دائما يثير الأسئلة ويحاول أن يجد الحلول، فإذا رأيناه يسد علي نفسه منافذ الإدراك، فقد لحق بالأنعام والدواب بل كان أضل منهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(٢).

والقــرآن الكــريم يقــدم للبشرية عنوانا للفكر والحضارة في كل العصور حين يتوعد المقلدين بالعذاب.

قــال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾(٤).

ثالثا : القرآن الكريم يدعو إلي العلم .

لست أرى صورة فكرية نهتدى بها في حياتنا الثقافية خيرا من مواطن دعوة القرآن الكريم إلي العلم ففيها يحث عليه ويدعو إليه، ليتثبت الإنسان فيما يعتقده من فكــر وعقــيدة، ولا يتنافى ذلك مع أن تكون هناك معان كبرى شغلت الإنسان منذ كان وستظل تشغله كفكرة السمع، والبصر، والفؤاد.

---

(١) سورة الزخرف آية: ٢٣.

(٢) سورة الأنفال آية: ٢٢.

(٣) سورة الأعراف آية: ١٧٩.

(٤) سورة الملك آية: ١٠.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾(١).

والقرآن العظيم يدعو الإنسان للنظر في الكون ليخرج من أغواره الخفية ما قد كمن في ثناياه أو اختفى وراء أستاره، وأول ما لفت إليه النظر.

قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ (٢).

ولم يناقش القرآن الكريم ما ينطوى عليه الفرق بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون بل تركها ((جل وعلا)) لأصحاب العقول وكأنها قضية بدهية.

قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾(٥).

وإذا بلغنا الحد في تتبع الآيات القرآنية الكريمة التي تدعو إلي العلم فسنجد أنها تدعو العلماء لأنهم هم الذين يعقلون ويتذكرون وهم أولوا الألباب وألوا النهى.

---

(١) سورة الإسراء آية: ٣٦.
(٢) سورة آل عمران آية: ١٨.
(٣) سورة الزمر آية: ٩.
(٤) سورة المجادلة آية: ١١.
(٥) سورة العنكبوت آية: ٤٣.

رابعا: القرآن الكريم ينهى عن الظن ويطالب بالدليل .

نزل القرآن الكريم علي أمة يغلب الوجدان علي رؤيتها، فلا تفرق بين ما قد يرضى عنه القلب والعاطفة، وما قد يقنع العقل، فأطلق العربى لسانه ناطقا وقلمه كاتبا بما تستريح له الأذان، وضاقت أمام عقله وسائل التفكير وإحكام التخطيط حتى حكام العرب ((أكثر حكمهم فلتات الطبع وخطرات الفكر)) (١). كما يقول الشهرستانى لهذا نزل القرآن الكريم يعالج الداء، وكان أول السير علي طريق النهوض دعوة مفصلة من القرآن الكريم نحو الذين تعرضت عقولهم لأزمات الأوهام والظنون.

قال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾(٣).

والقرآن الكريم يلفت النظر إلي أن التفكير ليس حكرا علي أحد، بل هو جزء من الفطرة البشرية لعله أقوى أجزاء تلك الفطرة وفي هذا دلالة علي ما ميز به الخالق ((جل وعلا)) الإنسان دون سائر الأجناس لهذا نراه يطالب الناس بالدليل والحجة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾(٥).

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى، تحقيق محمد بدران ج٢ ص٢٤٨.

(٢) سورة النجم آية: ٢٣.

(٣) سورة الحج آية: ٨.

(٤) سورة البقرة آية: ١١١.

(٥) سورة الأنبياء آية: ٢٤.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾[٢].

القرآن الكريم يوجه النظر إلي تدبره والانطلاق منه للقضايا العقدية والكونية:

أ- القرآن الكريم يوجه النظر لتدبره:

العقل وطريقته في التفكير لم يحددها الله ((جل وعلا)) بموضوعات معينة بل ترك البارى ((جل وعلا)) للعقل حرية التفكير في آياته المنظورة والمسطورة ليحيط بهما فهما وعلما، فلفت ((جل شأنه)) نظر العقل إلي التفكير في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٥].

القرآن الكريم وقضايا الفكر:

التعدد الثقافي بدهية تفرض نفسها إلا أنك سرعان ما تلح عليك فكرة أخرى وهي أن نوعا من الواحدية المنطقية لابد من قيامها بالنسبة للجميع في كل العصور وذلك لأن العصور عادة تدور حول محاور رئيسية وهي الله والعالم والإنسان، ولقد أحدث القرآن الكريم في الناس أينما كانوا نقطة التقاء مشتركة في عرضه لهذه القضايا.

---

(١) سورة الأنعام آية: ١٤٨.

(٢) سورة يونس آية: ٦٨.

(٣) سورة ص آية: ٢٩.

(٤) سورة محمد آية: ٢٤.

(٥) سورة النساء آية: ٨٢.

الله " جل وعلا "

صـــب القرآن الكريم اهتمامه علي الأفكار المغلوطة التي تتعلق بالإله فصح للفســلفة أفكارهــا النظــرية وصــح للوثنيين وأصحاب الديانات المحرفة عقائدهم وأوضــح القرآن الكريم لكل هؤلاء أن العقل لينفر من أقوالهم، والخطوط العريضة يمكن أن نراها من خلال النظر إلي الفجوة بين وهم المعددين للخالق والحقيقة في.

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾(٢).

وانــتقل القرآن الكريم إلي مجال الخلق فقرر في دقة أن الله هو الخالق بأدلة لا يجد الإنسان مبررا لقيام غيرها.

قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾(٣).

وقــوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٤).

وقــال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة آية: ١٦٣.

(٢) سورة إبراهيم آية: ١٠.

(٣) سورة الطور آية: ٣٥، ٣٦.

(٤) سورة الأنبياء آية: ٢٢.

(٥) سورة المؤمنون آية: ٩١.

وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾(٣).

ولقد كانت لأفكار المعددين والدهريين – التي قضى عليها القرآن الكريم – ذيول تعلقت بها فقضى عليها القرآن الكريم بأدلة وبراهين في مواضع عرضه ((جل وعلا)) لكماله المطلق.

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(٧).

وقال تعالى: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٨).

---

(١) سورة الفرقان آية: ٣.

(٢) سورة النحل آية: ١٧.

(٣) سورة الزمر آية: ٦٢.

(٤) سورة الشورى آية: ١١.

(٥) سورة طه آية: ١١٠.

(٦) سورة الإخلاص آية: ٤.

(٧) سورة الأنعام آية: ١٠٣.

(٨) سورة الحديد آية: ٣.

والله أعلـــم بكل ما يجرى في العالم من حركة وسكون ونفع وضر وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فلا طائر يطير بجناحيه ولا حيوان يدب علي بطنه ورجله ولا تطن بعوضة ولا تسقط ورقة إلا بعلمه وقضائه وقدره وإرادته ومشيئته، كل ما قضاه وقدره كائن لا محالة كما أن ما في علم الله يكون فهو كائن قريب.

قال تعالى: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾(٤).

والله معنى بالعالم وعنايته شاملة للسماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٦).

---

(١) سورة الأعراف آية: ٨٩.

(٢) سورة سبأ آية: ٣.

(٣) سورة الأنعام آية: ٥٩.

(٤) سورة الحديد آية: ٦.

(٥) سورة فاطر آية: ٤١.

(٦) سورة الحج آية: ٦٥.

وهكـــذا نجد القرآن الكريم محدد الفكر واضح الرؤية في إثبات التنزيه التام والكمال المطلق للبارى ((جل وعلا)) وهذا الفكر الإسلامى يرضى الإنسان السوى ويقنع العقل وأحكامه والقلب وخلجاته.

العـــالـــــم

الإنســـان يقـــف مـــن العـــالم موقف المتعجب يراه من خارجه ويتدخل في عناصره وجزئياته يوجهها ويسجل ما يجرى من نتائج، والمعرفة التي كانت تطلب لـــذاتها أو لأنها تفضى إلي الاستنارة وتبديد الجهل نراها تحقق للإنسان الأمن حين يرســـى بعقلـــه علـــي شاطئ اليقين – معرفته تعالى – وعندما يصل الإنسان لهذا الشاطئ يطمئن ويستقر لأنه علم أن الله خالق كل شيء.

قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ (١).

وقـــال تعالى: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾(٣).

ولمـــا كـــان الإدراك الحسى بغير العقل أعمى والإدراك العقلى بغير الحس فارغا فقد علم الإنسان من خلال عقله وحواسه أن العالم حادث وجد بعد أن لم يكن وأن العالم مخلوق بإرادته ((جل وعلا)) .

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(٤).

---

(١) سورة الحشر آية: ٢٤.

(٢) سورة الأنعام آية: ١٠٢.

(٣) سورة السجدة آية: ٧.

(٤) سورة يس آية: ٨٢.

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[٢].

الإنسان

الإنسان كرمه الله ((جل وعلا)) بالعقل وفضله علي كثير من خلقه.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٣].

والإنسانية تتضمن بذاتها تفردا فريدا فقد خلق البارى ((جل وعلا)) الإنسان بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وسخر له ما في السماوات والأرض جميعا.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[٤].

ويرسم البارى ((جل وعلا)) غاية عليا للجن والإنس من شأنها أن تعينهما علي اتجاه السير إلي أن أين يكون.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[٥].

---

(١) سورة الروم آية: ٢٧.

(٢) سورة يس آية: ٧٨، ٧٩.

(٣) سورة الإسراء آية: ٧٠.

(٤) سورة ص آية: ٧٢.

(٥) سورة الذاريات آية: ٥٦ : ٥٨.

وتخص آيات الذكر الحكيم الإنسان بما يجب أن يحيا به ويحيا من أجله.

قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[١].

قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[٣].

والله ((جل وعلا)) جعل للنفس الإنسانية رغبات وعواطف وآمالا ومخاوف وأغراضا ونوايا تؤثر فيها.

قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[٦].

---

(١) سورة القيامة آية: ٣٦.

(٢) سورة المؤمنون آية: ١١٥.

(٣) سورة الأنبياء آية: ٤٧.

(٤) سورة الشمس آية: ٧ : ١٠.

(٥) سورة الإنسان آية: ٣.

(٦) سورة الفجر آية: ٢٧ : ٣٠.

الفصل الثاني

سيرة الإمام الغزالي الفكرية

تمهيد :

هـذه صـفحة واحـدة من صفحات مفكرى الإسلام بل هي صفحة مضيئة غـيابها أو احـتجابها عن وعي أي باحث إسلامى من تجليات ضعف ذاكرته مما ييسـر تخـريبها بالفكـر المضاد، وعليه يمكن استعادة هذه الصفحة واستحضارها بمخـتلف الوسـائل ضـمن استراتيجية شاملة تقاوم النتائج اليائسة لفكر غيرنا بل وتعالج المقدمات الغائبة والسياق المفتقد في زماننا، ففكر الغزالى يعنى الصمود في مـواجهة التحديات، بل والإدراك السليم للصراعات الفكرية التي عرفها هذا القرن، ولا شك أن دراسة محاور هذه الحياة وموضوعاتها واتجاهاتها كفيلة بأن تمنحنا قوة صـادقة فـي المـواجهات، ففكـر الرجل هو عنوان لقوة الفكر الإسلامى في كل العصور، فقد حمى الأمة من عبث فلاسفة اليونان ومتفلسفة الإسلام، بعدما رأى أن الفلسـفة اليونانـية فـي جانبها الإلهى لابد لها من تحفظات وإلا انبثق منها شر لا نرضاه وقد تمثل هذا الشر في اعتقاد متفلسفة الإسلام عصمتها من الخطأ.

والحق أن الرجل قد ظل مهموماً بقضايا الفكر الإسلامى وليس هناك قضية واحـدة معاديـة للفكـر الإسلامى إلا وكان له فيها رأى معلن وموقف واضح فقد اسـتمرت إسـهاماته الفكـرية تسبح عكس اتجاه التيار المعاند للإسلام حتى النفس الأخيـر، ولـم يكن هذا كلاماً بل حقيقة دفع الرجل حياته ثمناً لها منذ كانت حياته بذرة إلي أن طرحت الشجرة ثمارها، وبما أنه لا يلمع في كل جيل من الأجيال إلا القلـة القليلة، كانت أفكار الرجل قد أفسحت له مكاناً ومكانه في طليعة كل الأجيال وقد اتسع هذا المكان وبرزت تلك المكانة لأن موضوعه كان ((الخطاب الدينى)) .

الإمام الغزالى (اللامنتمى ، المنتمى)

لكـــى نرى كيف صعد الإمام علي درجات الهرم الثقافى إلي قمته ثم أمسك بـــزمام الرأى والتوجيه نصب اهتمامنا علي سيرته الفكرية، ولعله مما يفيد القارئ ويضـــعه في الصورة – كما يقال – أن يتعرف معنا من خلال سيرته علي معنى ((**اللامنتمـــى، المنتمى**))، وسيعلم بعد رحلة قصيرة في حياته الفكرية ما الذي أعنيه بهـــذه الكلمات، وقد كانت نقطة الانطلاق ونهاية المطاف علوما حصلها الإمام طيلة حـــياته فكانـــت ((ولادتـــه في طوس إحدى مدن خراسان عام ٤٥٠هـــ)) [١] ومنذ نعومة أظافره تلقى الرجل ((علومه الأولى فيها علي يد متصوف صديق لوالده هو الشيخ أحمد الراذاكانى، وقرأ الفقه والأصول ودرسه علي أحمد الطوسى)) [٢].

والإمـــام فـــي هذه الفترة الأولى من حياته كانت تسرى المعارف في كيانه ســـريان الـــدم فـــي الشرايين فقد تلقاها بوعى متيقظ ونشاط متوفر ورغبة جامحة للكشف عن المجهول من أسرار العلوم، وبعد مرحلة طويلة في بطون الكتب حاول الـــرجل الاسترشـــاد بمـــنطق العقل في إدراك دنياه الفكرية، فوجد أن للعلوم التي حصـــلها فـــروعا لهـــا قـــيمة ولأصحابها منزلة رفيعة وفي مجال هذه المجموعة العظـــيمة والخطيرة من الأفكار وجد أن هناك معانى منطوية في ثنايا هذه الأفكار تخلـــد مـــا خلـــدت البشرية، ولما كان مجال الفكر هو وحده القابل لاختلاف الرأى وإقامـــة الحجـــة أو دحضها انقسمت حياة الرجل الفكرية إلي خطوط حادة مستقيمة منفصـــلة بعضها عن بعض، فقد كان ((رحمه الله)) في فكره كائنا بريا يستعصى علـــي الترويض، كان جمرة من القلق تصيب عدواه قارئه وكل من عرفه، فالرجل من قبل ومن بعد مفكر يعرف أهمية الفكر ووجد أن رؤى الناس يغشاها الضباب،

---

(١) تهافت الفلاسفة للإمام أبى حامد محمد الغزالى، تقديم وضبط وتعليق.

(٢) المصدر السابق ص٦.

لهذا انقسمت حياة الرجل إلي مراحل أولها:

فترة ما قبل الشك ((التحصيل العلمى)) ٤٧٠ - ٤٨٤ هـ :

كانت فترة ما قبل الشك تمثل التآلف المطلوب بين الغزالى ومعارفه وهذا التآلف معناه أن الرجل وقف موقفا إيجابيا يتعرف علي ما قد نسخه الآخرون فقد ((انتقل من طوس مسقط رأسه إلي مركز علمى كبير في جرجان وهو يناهز العشرين، ودرس فيها اللغتين الفارسية والعربية، ثم قصد نيسابور حيث كان الجوينى (ت ٤٧٨ هـ) رئيسا للمدرسة النظامية، واكب فيها دروس الفقه والأصول، والمنطق، والكلام، وتعد هذه المرحلة خصبة علميا في حياته الفكرية ثم خرج بعد وفاة الجوينى قاصدا نظام الملك)) (١).

ومع هذه المعاناة المرة - وفاة أستاذه - فإن معارفه تجعله نمطا فريدا في النقد إذ ((بدأت تساوره الشكوك في علوم عصره وتقاليده الموروثة)) فقد كانت عينه دائما علي خارج ذاته ينصهر في محنة)) دراسات وتحليلات وتأملات قام بها ليتبين حقائق الفرق والمذاهب والمدارس وغاياتها)) .

وإذا كانت روح الرجل العلمية قادرة علي النقد فإن فكره كان محدود القدرة علي احتمال المتناقضات وحين تراكمت الاختلافات الفكرية في عقله احتج الرجل احتجاجا عاتيا أفسد عليه معارفه وكان لا مفر من ((فترة الشك)).

ثانياً: فترة الشك في الموروثات والحسيات والعقليات ((٤٨٤ - ٤٩٨)) .

أيا كانت محاذير الرؤية الشخصية للرجل في معارفه العقلية فإن رؤية الرجل قد توافرت لها الحدود العليا من الفكر لأنها تلقى أضواء هامة علي جوانب

---

(١) تهافت الفلاسفة لإمام أبى حامد محمد الغزالى، تقديم وضبط وتعليق دكتور جيرار جهامى ص٨٥ ط دار الفكر اللبنانى، ط١، ١٩٩٣م.

تخفـــى عـــن العـــيون المبصرة لكنها لا تختفى عن العيون المجردة – أعنى النظر العقلـــى – ورغم كل ما يقال عن فترة شك الرجل فإن المعارف العقلية عنده ستظل ذات دلالـــة قصـــوى في وعى الدراسين فضلا عن وعي النخبة لأنه الفكر الوحيد الـــذي مس برفق شديد مسا عابرا البنية الأساسية للنظام المعرفى ((ومن يومئذ لم يتجـــرأ أحد من المفكرين عن الابتعاد عن هذه المنطقة الخطرة)) (١)، ((فقد أوغل الغزالـــى في بحث صلاحية العقل والحواس لكسب العلوم إيغالا انتهى به إلي عدم الثقة فيهما)) (٢).

وهـــذا الشـــك الذي أصاب الرجل كان بعد أن عكف علي مؤلفات تدل علي عشـــقه للمعـــرفة عشقا ملك حواسه وأفكاره فكتب ونظم وأخرج لنا مؤلفات رموز للعقلانـــية والاســـتنارة، وهـــذه الأطروحات العلمية تعتمد علي ركيزة أساسية هي توضيح الفكر الإسلامى ولا يفوتنا أن نذكر طرفا من هذه المراجع.

مقاصـــد الفلاســـفة: وهذا الكتاب هو أحد المساهمات والمؤشرات البارزة علي فهم مرامى الفلسفة.

تهافـــت الفلاســـفة: أول نقـــد فلسفى موضوعى جارح ((تهافت)) الفلسفة اليونانية عامة ومتفلسفة الإسلام خاصة.

معيار العلم: حدد فيه أسس علم المنطق حتى تستقيم خريطة العقل.

ولابـــد هنا من الإشارة إلي أن الرجل ((ترك بغداد فجأة وهو في أوج مجده، وراح يفـــتش عـــن الحقيقة اليقينية، متنقلا بين بلاد الشام والقدس والحجاز ومصر،

---

(١) انظر في ذلك: صدى أفكار الغزالى في فلسفة المحدثين، رسل، هيوم، وديكارت، وغيرهم، تهافت الفلاسفة للغزالى، تحيق دنيا ص ٤٢ : ٤٥.

(٢) تهافت الفلاسفة للإمام الغزالى، تحقيق وتقديم د/ سليمان دنيا، ص٣٧.

فقـد أقـام في الشام سنتين، ثم رحل إلي بيت المقدس وتحركت فيه لواعج الإيمان وفريضـة الحج فسار إلي الحجاز، ثم قصد مصر – هذه المرحلة دامت نحو عشر سنوات فامتدت من ٤٨٨ إلي ٤٩٨)) (١).

ولـم يكـن من هموم الرجل نقده للفلسفة لأنه ((اللامنتمى)) لفلسفة اليونان الوثنـية ومتفلسفة الإسلام ((المنتمى)) إلي الفكر الفلسفى لأن نقده لمتفلسفة الإسلام كان فلسفيا، ولم يكن نقده لهم معضلة بالنسبة له لذلك نجد الدكتور ((سليمان دنيا)) يقـول دائما عنه في بحثه للمسائل ((إن منهج الغزالى في بحث هذه المسألة أوضح وأدق من بحث ابن سينا)) (٢).

ولكـن المعضـلة للـرجل البحث عن الحقيقة بعد أن شك في قدرة الحواس والعقـل، فقـد رفـض الـرجل أن تكون معارفه من خلال جواسيس لا يتيقن من صـدقها، وإذا كـان كـل من سبقه لم يناقش قضية الشك في معارفه ومصادرها والـربط بينهما إلا أن عشق الرجل الجارف للفكر جعله يصل إلي مستودع أسرار الفكر لذلك نجد الرجل عبقرية خالصة في الفكر الفلسفى لأنه رصد تفاعلات الفكر الخفـية فليسـت كلمـة الـبحث عن الحقيقة مجرد تعبير عن العلاقة بين المعرفة ومصـادرها وإنما هي قبل ذلك وبعده تأملات مفكر نبش حتى الجذور التي ليست بعدها جذور.

ولـم يشأ الرجل أن ينطوى في ثياب الشك طويلا ويغلق علي نفسه الأبواب

---

(١) تهافـت الفلاسـفة للإمـام أبى حامد محمد الغزالى، تقديم وضبط وتعليق د/ جيرار جهامى ص٦ ط دار الفكر اللبنانى، ط١، ١٩٩٣م.

(٢) تهافـت الفلاسـفة للإمـام الغزالى، تحقيق وتقديم د/ سليمان دنيا ص٢٣، ط٦، دار المعـارف سنة ١٩٨٠م. قصد الرجل ابن سينا لأن الفلسفة الإسلامية بلغت أوجها في المشرق عند ابن سينا وفي المغرب عند ابن رشد.

العلمـــية وإنما شرع بكل ما يملك من أسلحة العلم والمعرفة يقاوم رياح الشك دفاعا عـــن المعـــارف الإسلامية التي ينتمى إليها، بعد أن أدرك أن الإسلام هو الرسالة الحقيقية للمفكر المسلم فلم يتخل لحظة بعد فترة الشك عن المعرفة بعد أن ((رجعت الضـــرورات العقلـــية مقبولة موثوقا بها علي أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح المعارف، فمـــن ظن أن الكشف موقوف علي الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله – تعالى – الواسعة)) (١).

ثالثاً: فترة الاهتداء والطمأنينة النفسية والفكرية .

تجاوز الرجل فترة الشك بعد أن شق طريقه الفكرى يتأمل حينا ويهتدى حينا آخـــر، وفي المعرفة اتضح للرجل أن الأسباب وسائل والمسبب وحده هو الذي بيده النـــتائج، وبذلك تكتسب الأشياء معنى لأن الحقيقة الكاملة المطلقة هي ((الله)) لذلك نـــراه يسلك طريق التصوف الذي يقول عنه ((تخلو بنفسك في زاوية تقتصر من العـــبادة علي الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب، مجموع الهم، مقبلا بذكرك علـــي الله وذلـــك في أول الأمر بأن تواظب باللسان علي ذكر الله تعالى فلا تزال تقول: الله الله، مع حضور القلب وإدراكه، إلي أن تنتهى إلي حالة لو تركت تحريك اللســـان لرأيت كأن الكلمة جارية علي لسانك لكثرة اعتياده .... ومنازل أولياء الله فيه لا تحصى)) (٢).

ومـــن الظواهر اللافتة في منهج التصوف قول الرجل ((إن القلب إذا طهر من أدران المعاصى، وصقل بالطاعات، أشرقت صفحته، فانعكس عليها من اللوح

---

(١) تهافـــت الفلاســـفة للإمـــام الغزالى، تحقيق وتقديم د/ سليمان دنيا ص٢٣، ط٦، دار المعارف سنة ١٩٨٠م.

(٢) تهافـــت الفلاســـفة للإمـــام الغزالى، تحقيق وتقديم د/ سليمان دنيا ص٢٣، ط٦، دار المعارف سنة ١٩٨٠م.

المحفـوظ ما شاء الله أن يكون وهذا هو العلم المعروف بالعلم اللدنى أخذا من قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ (١)

وفسروا الرزق في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٢) . بالعلم من غير تعلم)) (٣).

وإذا كانـت الكـتابة لا تقـاس بعدد الكلمات المكتوبة فإن تصوف الإمام قد ترجم لنا معانى عديدة في كلمات قلائل واضحة المعنى محددة الدلالة تركت عندنا أثـرا أعمـق الأثر حقا، وكلمات الإمام أجدر بالتأمل لأنها أجمل وأعمق ما كتب الإمـام وخلاصتها قوله: ((**إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالـى خاصـة، وأن سـيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكـى الأخـلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين علي أسـرار الشـرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خيـر مـنه، لـم يجـدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطـنهم، مقتبسـة مـن نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة علي وجه الأرض نـور يستضـاء بـه ... وأنهـم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتا، ويقتبسون منهم فوائد ... إلي أن يقول:**

وكـان مـا كان مما لست أذكـره

فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر)) (٤).

---

(١) سورة الكهف آية: ٦٥.

(٢) سورة الطلاق آية (٢، ٣) .

(٣) تهافـت الفلاسـفة للإمـام الغزالى، تحقيق وتقديم د/ سليمان دنيا ص٢٣، ط٦، دار المعارف سنة ١٩٨٠م.

(٤) السابق نفسه.

ويبقـــى السؤال قائما ما الذي أحدث في الإمام هذا التغير – التصوف – بعد التساؤل والشك والرفض وهي سمات مرغوبة في الإمام، غير أنها سمات وقدرات مرحلية انتهت به إلي التصوف ونحن في موطن الإجابة نقول: إن سلطة التصوف لـــم تقمع ثقافة الإمام لأن من طبيعة التصوف أنه لا يكون في صراع مع الثقافة بل نلاحظ بصمات التصوف الإيجابية في ثقافة الإمام، ويجب الاعتراف سلفا بأن نفس الإمام كانت أقوى من أن يمتلك زمامها فرد مهما تحلت شخصيته بصفات لكن كان أخـــو الإمام الخيط المستمر في نسيج وجدانه فقد جعل الإمام يركز الانتباه للكشف عن العلاقة بين الغايات والوسائل فجمع بينهما، وسر الجمع ينطلق من موقف معلن – بين الإمام وأخوه – قدم لنا صورة حقيقية دقيقة وحاسمة جعلت الإمام ينظر إلي الغايـــة بعد أن استولت عليه والوسيلة، فقد دخل عليه أخوه يوما وهو يلقى مواعظه علي الناس فقال له:

أخـــــذت بأعضـــــادهم إذ دنـــــوا

وخلفـــك الجهـــد إذ أســـرعوا

وأصـــــبحت تهـــدى ولا تهـــتدى

وتســـمع وعظـــا ولا تســـمع

فـــيا حجـــر الشـــحز حتـــى متـــى

تســـن الحديـــد ولا تقطـــع[1]

تلك كانت حياة الرجل الفكرية فقد عاشها مسلما عربيا وعالميا بلا حدود من الجغـــرافيا أو السياســـة كان وما زال، وسيظل يرى فيه علماء الدنيا عبقرية. وهي

---

(١) الإحياء للإمام الغزالى ص١٩٨.

عبقـرية الإبـداع الفكرى التي تجمع خلاصة العبقريات في مفكر واحد فلا يحتاج صـاحبها إلي تخليد ذكراه لأن الأثر الفكرى أقوى من صاحبه ولأنه لم يكن طيلة العقـود الـثلاثة – قـبل الشك وفي أثنائه وبعده – في نزهة فكرية بل في المنفى الفكـرى مخاصـما كـل الأفكار التي لا تستقيم مع العقل، فقد جاء بلفته جديدة في مـنهج الـبحث العلمى خلاصتها: أنه توصل إلي إدراك المعارف إدراكا يأمن معه الخطـأ، وبذلك يكون الرجل قد تخلص من الشك الذي يدور حول المعرفة بعد أن تخلـص مـن الشـك الذي يدور حول موازين الحقيقة، والرجل حقق شرطا مهما لموهبته الفكرية والشرط هو النمو الفكرى في متابعته للثقافة، ولأنه كان يعيش في القلـب الـنابض للفكر – الإسلام – فالرجل طرح تساؤلات وقدم تأملات فيها من الثـراء مـا فتح للمفكرين الآفاق والاحتمالات بما لا يخطر علي فكر باحث خلال العملية الفكرية المعقدة لإبداعه.

الفصل الثالث

وســـائل معـــارف الإمـــام

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً . ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾. **الفرقان ٤٥ : ٤٦**

تمهيد:

ما خلود الأشخاص سوى أن تظل أفكارهم حية في قلوب الناس، وقد قيل إن لكل فيلسوف كبير نقطة بداية يرتكز عليها، وقد كانت تلك النقطة في فكر الإمام – المعـــارف العقلـــية ووسائل تحصيلها – غاية غاياتى حتى لأجتهد أن أحصلها فإذا ظفرت بها وانتهيت إليها فقد اطمأن عقلى، والإمام في محاوراته العقلية يحاول أن يلـــتمس المعرفة ويستمد اليقين من محاورة حواسه له، وإذا كان اليقين غير ميسور فـــي الفكـــر البشـــرى فلن يقنع الإمام بالرجحان لأنه وجد المعارف العقلية تشوبها شـــائبة الشـــك ويجـــب اتخاذ تحفظات حذرة حيالها، وسرعان ما بلغ الإمام اليقين واستقر عليه لأن الفكر الفلسفى الحقيقى ليس أن نحفر حتى نصل إلي الفراغ ولكن نحفـــر حتى نصل للثبات وعظمة اللامتغير علي حساب المتغير واضحة فاللامتغير واليقـــين المطلـــق شـــيء واحـــد والحقيقة التامة الكاملة ((وحى إلهى لا متغير)) ((معصوم)) وليست هذه هي القضية بأكملها ولكنها تمهيد لفكر الإمام الذي كان في جـــريان متصـــل فإذا حل موقف معقد للمعرفة حل محله موقف آخر حتى بلغ في نهاية المطاف درجات الكمال.

رســـم الإمـــام صـــورة دقـــيقة لأداة المعرفة في الإنسان – العقل – بقوله: ((**الفطـــرة الغريـــزية والنور الأصلى الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء**)) (١)

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى الجزء الثالث ص٣٩٨ .

فالعقل هو الأمانة التي أرسلتها العناية الإلهية لتحقق للإنسان شرف الوجود وقيمته فهو النور الذي يصل المخلوق بخالقه، والعقل يعنى المعرفة ومهمة المعرفة الحقيقية عند الإمام لم تكن بالمهمة اليسيرة، وإنما كانت أخطر عمل فكرى في حياته، ومن الحق أن نقول إن الإمام استطاع أن يحقق الهدف الذي كان يرمى إليه من وراء تتبع مصادر المعرفة ومعرفة وسائل تحصيلها، ودرجة صدقها فقد بدأ:

أولا : بالأخذ بما يدور علي ألسنة الآخرين .

والظاهر أن هذا الطريق وجد ترحيبا وحماسة واندفاعا عند الغزالى في أول الأمر ثم نبذا وتراجعا في النهاية وقد عبر الغزالى عن هذا المعنى أدق تعبير في قوله: ((**لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع علي بطانته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف علي كنه فلسفته ولا متكلما إلا وأجتهد في الاطلاع علي غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا إلا وأحرص علي العثور علي سر صفوته ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ولا زنديقا وإلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته وقد كان التعطش إلي درك حقائق الأمور دابى، وديدنى من أول أمرى، وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتى لا باختيارى وحيلتى**))(١).

والإمام قد وهبه الله تعالى عقلا متوثبا بعزم وتصميم لا يرضى بأى قيد يغله، يقول: ((**انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة علي قرب عهد سن الصبا، إذا رأيت: صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا علي التنصر وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا علي التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا علي الإسلام**))(٢).

---

(١) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى مع أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام بقلم الدكتور عبد الحليم محمود، ص٧٥.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

ومـــن الواضح أن الإمام ابعد هذه الأفكار والتلقينات الموروثة عن مركز ضوئه العقلـــى. لكـــنه لـــم ينفض يديه من مشكلة العلم بحقائق الأمور فقد رأى وسيلة أخرى للمعـــرفة أقـــوى مـــن كل الوسائل وهي الحواس التي لعبت دورا خطيرا في تأملات الإمـــام. فمـــن الملاحظ أن اهتمام الإمام بهذه الوسيلة كان أشد وأقوى من اهتمامه بأى وســـيلة أخـــرى، والسبب في هذا يرجع إلي أن الوسيلة الجديدة – الحواس – واضحة ودقـــيقة فالمـــراد معرفته بنكشف انكشافا ظاهريا ليصور الحقيقة، وكان اختيار الإمام لحاســـة البصر لتكون موضوعا لتأملاته قد فرض عليه أن يقف منها وقفة متأنية طويلة نفـــذت إلـــي معرفة حقيقتها ودرجة صدقها، ومن هنا كانت دراسة الحواس علي جانب كبير من الأهمية.

ثانياً: الحواس وما تدركه .

لعـــل المنهج العلمى الذي فرضه حجة الإسلام علي نفسه لمعرفة درجة صدق الجواســـيس الخارجـــية للعقـــل ساعده علي توضيح الصورة الحقيقية للمفكرين لأن تـــأملات الغزالى لحواسه تمثل طرافه في الفكر وجدة في النتائج، ويشعرنا من طرف خفـــى أن قضية ليس مع العين آين)) يجب أن نتحدث عنها حديثا علميا دقيقا، ويضع الإمـــام أيدينا علي الأسس التي توضح طبيعة الحواس فيرى في مشكاة الأنوار ((**أن حاســـة البصـــر – العين – لا ترى نفسها بنفسها أما العقل ((فيدرك نفسه، ويدرك علـــم نفسه، ويدرك علمه بعلم نفسه**)) [١] وإلي جانب هذا أيضا فإن حاسة البصر لا حـــول لها ولا قوة في رؤية الشيء البعيد عنها كثيرا أو القريب منها قرب الملاصقة وهـــذه القضـــية – البعد أو القرب – لا تمثل أهمية للعقل فالعين لا ترى إلا الظاهر الواضح من المرئيات.

---

(١) مشـــكاة الأنـــوار للإمـــام الغزالى، تحقيق د/ أبو العلا عفيفى، ص٤٤، ط القاهرة ١٩٦٤م.

وأما العقل ((**فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة، والمعانى الخفية عنده جلية**)) [١] كما أن العين ترى الكبير صغيرا والمتحرك واقفا فهى ((**تنظر إلي الظل فتراه واقفا غير متحرك، وتحكم بنفى الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة – بعد ساعة – تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك بغتة بل علي التدرج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف، وتنظر إلي الكوكب فتراه صغيرا في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل علي أنه أكبر من الأرض في المقدار**)) [٢] ونعود مرة أخرى لوسيلة جديدة من وسائل المعرفة عند الإمام لنتابع النظر في تفاصيلها ولكن من المهم أن نلاحظ أن الإمام لم تكن تأملاته الفكرية الدقيقة عن الحواس غايتها الشك في مقدرتها علي المعرفة كما فهم الكثير من القدماء والمحدثين ولكن كانت تأملات الإمام للحواس لمحة تحتاج إلي كبير ذكاء لكى نعرف غايتها الحقيقية وسأرجئ ذكر الحديث عن الغاية العميقة الأثر إلي نهاية هذا المبحث...!

بعد هذا العرض السريع لمصدرين من مصادر المعرفة من خلال وسيلتين من وسائل تحصيلها يجدر بنا أن نقف وقفة متأنية تنفذ إلي معرفة المصدر الأعلى للمعرفة وهو.

ثالثا: العقل ومصادر معارفه .

الشيء الجدير بالملاحظة أن المفكرين لم تعد أفكارهم تدور في دائرة تحديد مركز العقل في الإنسان وإنما اتسعت لتعبر عن معنى العقل أو بتعبير أدق حد العقل وكانت نتيجة هذا أن العقل هو ما يخطو بالإنسان خطوة جديدة أبعد مدى وأشد عمقا من الخطوة السابقة – الحواس وما تدركه – فالعقل يمضى ينظم المقدمات ليصوغ النتائج ((واختصارا فإن حد العقل هو أن ينقل الإنسان من معلوم إلي مجهول، ومن شاهد إلي غائب، من ظاهر إلي خفى، من حاضر إلي مستقبل لم

---

(١) مشكاة الأنوار ص٤٦.

(٢) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى مع أبحاث في التصوف بقلم الدكتور/ عبد الحيم محمود ص٧٧ .

يحضر بعد أمام البصر)) (١).

ويرى الإمام أن المعارف العقلية تنقسم إلي:

١- معارف ضرورية فطرية.

٢- معارف نظرية مكتسبة.

المعـــارف الضـــرورية الفطرية وهي أوليات فطرت في الإنسان ولا دخل للحـــواس في تحصيلها كالعلم بأن الإثبات والنفى لا يجتمعان معا في الشيء الواحد فالعقل يرفض اجتماع الأضداد فيرفض أن تكون الثلاثة أكثر من العشرة، ويرفض أن يكـــون الشـــيء الواحد المعين موجودا ومعدوما في آن واحد، ويرفض أن يقال عن المخلوق إنه قديم أزلى فهذه المعارف وأمثالها مفطورة في العقل.

أمـــا المعـــارف النظـــرية المكتسبة فهى التي يستفيدها الكائن الحى بالتعليم والاستدلال.

ويوضح الإمام طابع المعارف الضرورية الفطرية والنظرية المكتسبة بقوله: ((**المعـــارف العقلـــية نعنـــى بهـــا مـــا تقتضى بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والســـماع، وهي تنقسم إلي ضرورية لا يدرى من أين حصلت وكيف حصلت كعلم الإنســـان بأن الشخص الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما معا، فإن هذه العلـــوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطورا عليها ولا يدرى متى حصل له هذا العلـــم، ولا من أين حصل عليه، أعنى أنه لا يدرى له سببا قريبا وإلا فليس يخفى علـــيه أن الله هـــو الذي خلقه وهداه إلى علوم مكتسبة، وهي المستفادة بالتعليم والاستدلال**)) (٢).

وفـــي ضوء هذه التفرقة بين المعارف العقلية الضرورية والمكتسبة نقول: إن الإمـــام يمنح ثقته للمعارف الضرورية الأولية فمن المعروف أنها معارف يقينية

---

(١) تجديد الفكر العربى، أ. د/ زكى نجيب محمود ص ٣١١ .

(٢) الإحياء للغزالى، ج٣ ص١٥ .

وأن الفكـــر الصـــحيح يجب أن يقوم عليها؛ لأن قيام العلم علي معارف غير يقينية يجعلـــه يســـجل انحـــرافا في خط سير الفكر يبعده عن الصواب إلي مجال الخطأ، ونســـتطيع أن نتبين إلي أي حد وصلت ثقة الإمام في وضوح المعارف الضرورية الأولـــية التي يجب الانطلاق من خلالها في كل عملية فكرية استدلالية مبالغة منه فـــي الاحتياط وحرصا علي صحة النتائج التي يسجلها حتى لا يخدعنا الوهم ويموه علينا بنتائج خاطئة وفي هذا المعنى.

يقـــول الإمام: ((**والـــوهم لا يكذب الحقائق العقلية الضرورية الأولية كما لا يكذب المعارف الحسية وإنما يكذب الوهم المعارف العقلية النظرية**)) .

والآن وقـــبل أن ننـــتقل إلي الوسيلة الأخيرة من وسائل المعرفة عند الإمام لعلـــنا لم نتس أننا قلنا في حديثنا عن الحواس وما تدركه إن غاية الإمام في تأملاته فـــي وســـائل المعرفة ودرجة صدقها وصلة كل وسيلة بالأخرى لم يكن الشك في قـــدرة الوســـائل علي المعرفة ولكن كانت وسائل المعرفة ودرجاتها المتعالية أفكار مفكـــر لا تجود به الحياة الفكرية إلا بعد حين طويل فقد جمعت أفكاره في مصادر المعرفة بين حدة الذكاء وقوة المقدمات وهدوء التأمل ووضوح النتيجة التي تتطلب مـــنا دقة في تحليل مقدماتها التي تناولها الإمام في مراحل سيره من وسيلة لأخرى تحلـــيلا يـــبلغ بـــنا الغاية التي نقطع بصوابها وهي أن تأملات الإمام في المعارف العقلية ومنافذها الخارجية لم تكن الغاية منها الشك في مقدرتها علي المعرفة ولكن كانـــت الغاية هي أن كل وسيلة من وسائل المعرفة تعلوها وسيلة أخرى أقوى منها علي تحصيل المعارف.

وســـندنا المنطقى الذي يؤيدنا فيما ذهبنا إليه هو أن حديث الإمام عن العين مـــثلا ومـــا تدركه في مجالات الرؤية الواسعة التي لا تسمح لها بالإحاطة الكاملة، ترى فيه العين المتحرك ساكنا والساكن متحركا فقد حكمت علي الظل بالسكون لكن العقـــل حكم علي الظل بالحركة البطيئة، وهنا نصل إلي صميم غرضنا فنطرح هذا السؤال:

من الذي جعل العقل يحكم علي الظل بالحركة بعد أن ظنته العين ساكنا ؟

الجـــواب فـــي يسر وسهولة ((العين)) فهى التي رأت الظل في انتقاله من مكان إلي آخر وعليه فقد بنى العقل حكمه بالتحرك البطيء للظل فالعين هي وسيلة الاتصال بين الشيء المرئى وبين العقل، فهى التي تمد العقل بالمعلومات التي يبنى أحكامه علي أساسها – كذلك العقل يستمد معارفه من وسائله الخارجية، ويبلغ ذروة إفلاسه عندما يحاول مواصلة التفكير إلي مستوى لم يكن معد له أي مجال ما وراء الطبـــيعة فاهـــتمام العقـــل بعالمه الخارجى يجب أن يكون أشد وأقوى من اهتمامه بالميتافيزيقا التي تكشف حقائقها ودقائقها النصوص الشرعية المعصومة.

ولعـــل هـــذا الفهم لتأملات الغزالى لوسائل المعرفة علي ما فيه من مخالفة للكثيـــر من الباحثين يساعد علي توضيح فكر الغزالى وإزالة الغموض الذي يكتنفه والذي أصابه بحمى الورد.

ونحـــن لا نريد أن نقول إن الباحثين قد أخطأوا في فهم فكر الإمام وإنما نريد أن نقـــول إنهم قد بنوا أحكامهم علي فترة شك الغزالى ولو يواصلوا السير إلي حقيقة فكره ففتـــرة شـــك الإمـــام جعلته يقف من كل المعارف موقفا علي جانب كبير من التحرج والتـــردد بـــل جعلته ينصرف عن كل معارف الحس والعقل والنوم حتى قال: ((**فلعل حـــياة الدنـــيا نـــوم بالإضافة إلي الآخرة فإذا مات ظهرت له الأشياء علي خلاف ما يشاهده الآن**)) (١).

وإذا كـــان هـــذا الداء من العوامل القاطعة في ضعف ثقة الإمام بالمعارف وبدايـــة انحدارها – وقد كنا نعتقد أنه متى تم البرهان علي قضية قامت ولن تسقط بالـــتقادم، ولا جـــدوى من إعادة البرهنة عليها، لكن الإمام يلفت نظرنا – في فترة شكه – إلي قضية خطيرة وهي أن وظيفة العقل إثارة الأزمات وأن مسألة المعرفة العقلية – تحليلية كانت أو تعليلية – وأي منهما لا يختفى إلا في حالات ثانوية ليس

---

(١) المنقذ من الظلال للإمام الغزالى ص٧٩.

مـــؤكدا. وإننا ليبدو لنا ذلك غريبا لكن الإمام ينجو بعلمه من الإصابة بذلك الوهن الذي لا شفاء منه – الشك – ويقر بصواب التفكير العقلي يقول الدكتور سليمان دنيا ((وقد أوغل الغزالى في بحث صلاحية العقل والحواس لكسب العلوم، إيغالا انتهى بـــه إلـــي عدم الثقة فيهما وهنا ارتطم الغزالى بشك لم يكن إلي التخلص منه سبيل، لـــولا رحمة من الله تداركته فأعادت إليه الوثوق بالعقل، فراح يؤسس معارفه في ضوئه وعلي هداه مترسما خطى التحديد الدقيق الذي وضعه للعلم)) (١).

وإذا كان هذا الشك قد بدأ وبلغ مداه في ((قرابة شهرين)) (٢).

فـــإن سلامة الفكر عند الباحثين تفرض عليهم ألا يقفوا من تأملات الإمام في وســـائل المعـــرفة وقفة سريعة متعجلة تحكم علي فكره في فترة شك لم تدم طويلا ولكن كانت سلامة النتائج تفرض عليهم أن يقفوا من فكر الإمام وقفة متأنية طويلة تـــنفذ إلي الأعماق ليتبين لهم أن الله سبحانه وتعالى شفاه من ذلك المرض، وعادت الـــنفس إلـــي الصحة والاعتدال، ورجعت الضرورات العقلية مقبولة، موثوقا بها، علـــي أمن ويقين ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى في الصـــدر وذلـــك النور هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف علي الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة، ولما سئل رسول الله ﷺ عن ((الشرح)) ومعناه في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾(٣).

قال: ((هو نور يقذفه الله تعالى في القلب)) .

فقيل: وما علامته ؟

قـــال: التجافى عن دار الغرور، الإنابة إلي دار الخلود، وهو الذي قال عليه

---

(١) تهافت الفلاسفة للإمام الغزالى تحقيق وتقديم/ الدكتور سليمان دنيا ص٣٧ .

(٢) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ص٧٩ ونص عبارته ((فأعضل هذا الداء ودام قريبا من شهرين أنا فيهما علي السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال)) .

(٣) سورة الأنعام آية: ١٢٥.

السلام فيه ((إن الله تعالى: خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليه من نوره فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف)) (١) لأن النور هو الفطرة والفطرة هي العقل كما وضح لنا الإمام في بيانه لمعنى العقل.

ولعله من اليسير بعد أن تناولنا تأملات الغزالي لمصادر المعرفة بوعي كامل وفهم عميق وبجدية علمية تحلل وتؤصل. نصل الآن إلي غاية الإمام من وسائل المعرفة ودرجة صدقها وصلة كل وسيلة بالأخرى وهي أن حدود الحواس يعلمها العقل وتنبئه بها الحواس، وحدود العقل يعلمها الوحي وينبئه بها العقل الذي لا يفكر في الخروج عن الدائرة التي خلق لها ولا تغيب عنه مجالاته التي يعيها، وليس أدل علي ذلك من أن دعوى (الميتافيزيقيا) قد رفعت أمام محكمة العقل فأصدر حكمه برفضها لأنها ليست محل اختصاصه.

قررنا إذا منذ البداية أن مهمة العقل ليست في عالم ما وراء الطبيعة، فالعقل مهمته تقتصر علي عالمه الحسى الذي يعيش فيه وأنه غير قادر علي القيام بكشف حقيقة (الميتافيزيقيا) ومن هنا اتجه العقل للبحث عن حقيقة هذا العالم في وسيلة أخرى من وسائل معارفه وهي:

---

(١) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ص٧٩، ٨٠ روى الحديث بألفاظ متعددة – لم نجد فيها لفظ الإمام الغزالى (رش) والرواية عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله عز وجل خلق الخلق في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول جف القلم عن علم الله. وفي رواية خلق الخلق ثم جعله في ظلمة ثم أخذ من نوره ما شاء، فألقاه عليهم فأصاب النور من شاء أن يصيبه وأخطأ من شاء. فلذلك أقول جف القلم مما هو كائن، رواه أحمد، انظر مجمع الزوائد تأليف ابن أبى بكر الهيثمى – باب سبب الهداية، الجزء السابع ص١٩٣ .

رابعا: النصوص الشرعية أو الوحى المعصوم

حـــاول الإنســـان بعقلـــه وذكائه أن يحقق لنفسه الأمان لترسى فطرته علي شـــاطئ اليقـــين إلا أن معارفـــه ضيقة محدودة قنع فيها بالاحتمال أو الرجحان في عالمـــه الحسى، فأحس أن عالم الغيب ميدان للوحى، فالعالمان – عالم الحس وعالم الغـــيب – يفصل بينهما خط واضح وتقع بينهما أرض محايدة لم يطأها فكر بشرى فكل محاولة للاقتراب من معرفة تفاصيل هذا العالم الغيبى ماتت ودفنت في مهدها.

وعظمـــة الغزالى المفكر جعلتنا نشعر من طرف خفى أنه مع أفكار العقيدة الإســـلامية بنصوصها المعصومة يتنفس هواء أنقى من كل المعارف وأمام أعيننا وبـــين أيديـــنا مـــا يبين في جلاء ووضوح أن الغزالى قد شهد للنصوص الشرعية المعصـــومة أنها الوحيدة القادرة علي كشف عالم ما وراء الطبيعة. فالعقيدة الدينية الصحيحة هي الوحيدة القادرة علي أن تكشف للعقل البشرى عن اتجاهه حتي تكون أبحاثـــه ناجحة ومثمرة لأن ((عقل الإنسان مركب تركيبا يؤسف له فإنه مع شغفه بالـــبحث فـــي مســـائل لا تـــدركها حواســـنا لـــم يستطع أن يكشف معمياتها)) (١) فالميتافيـــزيقيا قـــيمة عليا لا يكشف عنها العقل الإنسانى ومع ذلك لم يغمض عنها العيون بل حاول أن يعرفها معرفة دقيقة من الوحى الإلهى المعصوم.

وســـنطيل الآن الوقـــوف عند الإمام لنرى أننا من واجبنا أن نصب اهتمامنا علـــي النصـــوص الشرعية لمعرفة عالم ما وراء الطبيعة وأن لا نحاول أن نسير خطـــوة واحدة في هذا العالم الغيبى بغير ضوء النصوص الشرعية المعصومة لأننا لـــو حاولنا السير في عالم الميتافيزيقيا بالعقل وحده فسنجد أنفسنا مبحرين علي متن سفينة ليس لمياهها شطآن، وعن خلق العالم .

---

(١) مبادئ الفلسفة تأليف رابو برت ترجمة الدكتور أحمد أمين ص١٤.

يقـــول الإمـــام : ((**وتتساءل العقول: كيف خلق الله العالم؟ أخلقه عن العدم المطلـــق، فكـــيف إذن ينتج شيء من لا شيء؟ إن شيئا من لا شيء لا يتصوره العقـــل، بـــل إنـــه يحكم باستحالته. أم خلقه من مادة كانت موجودة، فالمادة إذن قديمة قدم الله نفسه. وهناك إذن قديمان: الله والمادة**)) (١).

وكمـــال الـــبارى جل وعلا يعبر الإمام عنه في قوله ((**والله لا نهائى الذات، ومقتضـــى هـــذا أن لا يخرج عن ذاته مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، إنه الأول الآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم**)) (٢).

ويصعب جدا فهم معنى كلام ((شيلى)) عن كمال البارى ((جل وعلا)) بيد أن ذلـــك لا يـــنقص من عمق هذه العبارات ((إن أصغر ورقة من أوراق الأشجار التي يلاعبها النسيم ليست إلا بضعة منك – جزء من أجزائك – كلا ولا أحقر دودة تسكن القبور وتسمن من لحوم الموتى أقل مشاركة لك في حياتك السرمدية. ويقول: إن هذه الروح التي توجد في كل مكان بها يحيا كل موجود هي هو)) (٣).

والـــذي نعده منطقيا قول الإمام تعليقا علي شيلى ((**أحق هذا؟ أم أن ذات الله لا تتضـــمن أرضا ولا سماء ولا برا ولا بحرا، فهى إذن محدودة لأنها ما عدا هذا الكون**)) (٤).

ويمضـــى الإمام إلي صميم غرضه فيطرح هذه التساؤلات عن علم البارى ((جل وعلا)) فيقول: ((**والله عالم، أهو عالم بما كان علي أنه كان؟ وربما سيكون علـــي انـــه ســـيكون؟ وبما هو كائن علي أنه كائن؟ أم أنه عالم بما كان وبما هو**

---

(١) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ص٣٣٤.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٤.

(٣) مبادئ الفلسفة رابوبرت ص٢٠٣.

(٤) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ص٢٣٥.

كـــائن علـــي أنـــه سيكون؟ أم أنه عالم بما هو كائن وبما سيكون علي أنه كان؟ أيســـطر الـــزمن علي علم الله؟ أم أن الله فوق الزمن؟ وأنه في حاضر لا يزول؟ ولكـــن كـــيف يتأتـــى لنا حقا أن نفهم أن الله حاضر لا يزول؟ مع بداهة شعورنا بالماضـــى والحاضـــر والمستقبل والله عالم – كما قلنا – أهو عالم بذاته فحسب لأن علمـــه فـــي شـــرفه وسموه وكماله إنما يتعلق بما يناسبه من شرف وكمال وسمو، وليس ذلك إلا ذاته – سبحانه وتعالى أم أن علم الله يتعلق بذاته، وبالكليات، ولا شأن لـــه بالجزئيات لأنها تافهة لا قيمة لها، والله منزه عن أن يتعلق علمه بالتافه؟. أم علم الله يـــتعلق بذاتـــه، وبالكلـــيات، والجزيئات، علي الرغم مما في الجزئيات من نقص وتفاهة، ومن مناظر تشمئز منها النفس ويعافها النظر)) (١).

وإنـــه لـــتجاوز فلسفى عجيب أن يخترع العقل هذه الأسئلة من أساسها عن قـــدرة الـــبارى ((جل وعلا)) يقول الإمام ((**والله قادر. أهو قادر علي كل شيء؟ أقـــادر هـــو علـــي الجمع بين الضدين مثلا؟ أقادر علي أن يجعل الثلاثة أكثر من العشـــرة؟ والجـــزء أكبـــر مـــن الكل؟ أم أن هناك المستحيل بالنسبة إلي قدرته، أفيتصـــف إذن بالكمال؟ أم أن قدرته لا تتعلق بالمستحيل – كما يقول علماء الكلام – معـــتقدين أنهم بذلك قد حلوا الإشكال؟**)) (٢) وشدة أسئلة الإمام العقلية في قضية إرادة الـــبارى ((جـــل وعـــلا)) تتحدى أي معقولية، وفي رسالته الآتية ملاحظات عمـــيقة وعشـــرات فكـــرية للعقل يوضح لنا الإمام الفرق اللافت للنظر بين التفكير العقلـــى المســـتقل والنص الشرعى المعصوم ويبخس الإمام قدر العقل والمنطق إذا استقل عن الشرع بل ويرى أن استقلال العقل عن الشرع معناه الهدم الفورى للفكر يقول الإمام ((والله مريد. أيريد الخير والشر؟ فلم الحساب والعقاب أو المثوبة إذن؟ وكـــيف يريد الشر؟ مع أن طبيعته خير محض؟ كيف يريد الشر مع أن إرادة الشر

---

(١) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ص٣٣٦.

(٢) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ص٣٣٦.

فـــي بنى البشر تعتبر نقصا، وإذا لم يكن يريد الشر فهل يحدث الشر في هذا العالم رغمـــا عنه، أم أنه يحدث وهو عنه راض وإن لم يكن له مريدا؟ أيرضى الله عن الشـــر أم يكرهه؟ إن رضاه ((جل وعلا)) بالشر يتنافى مع كماله. وإذا كان ((جل وعـــلا)) يكـــره الشر فكيف يوجد مع كراهيته له؟ أيحب أن يعصى؟ أم أنه يعصى رغما عنه؟)) (١).

ويؤكد الإمام أن وظيفة العقل الفلسفى إثارة الأزمات؛ نستخلص هذا من قوله فـــي صـــفات الـــبارى جل وعلا ((**وصفات الله عامة، مطلقة، شاملة، لا نهائية، ورحمته وسعت كل شيء، وهو جبار، ذو جبروت لا نهائى، ولطيف لا حد للطفه ((فكيف تنسجم الرحمة المطلقة مع الجبروت المطلق، مع أن البداهة تقتضى بأن تنفى كل صفة منها وجود الأخرى**)) (٢).

وتقدم العقل الفلسفى بالأسئلة معناه أن تزداد إثارته للأزمات إلي ما لا نهاية ويغـــدو أكثـــر طواعية باستمرار إلي ميدان لم يعد له. وفي هذا يتساءل الإمام عن الوحـــى ((كـــيف يلقى الله بالمعرفة إلي رسله؟ بأى لغة يخاطبهم؟ وكيف ينزل ((الملـــك)) علـــي رســـول الله فيراه ويسمعه في حين أن من كانا معه لا يرونه ولا يسمعونه؟ ومن أين يأتى؟ أمن السماء؟ ولم؟ مع أن الله في كل مكان.

إن مشكلة الوحى، هي الأخرى من المشاكل التي استنفدت الكثير من المداد(٣).

والحياة طبيعية كانت أو حيوانية أو إنسانية في جريان متصل وتغير مستمر وتتســـاءل الفلسفة من أين؟ وإلي أين؟ ولماذا؟ وكيف؟ وقبل أن تأخذها الحيرة تجد ثمة قوى غير منظورة تتدخل ويكون لها الكلمة النهائية.

ولمـــا كـــان المصـــير أشد أهمية كان تفكير الفلاسفة بالنسبة لأحداثه المقبلة

---

(١) المصدر السابق ص٣٧.

(٢) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ص٣٣٧.

(٣) السابق ص٣٣٨.

أعظـم. يقـول الإمـام علـي لسان الفلسفة ((**وماذا بعد هذه الحياة؟ أحياة أخرى جسـمانية نأكل فيها ونلهو، ونلعب، ونسرح، ونمرح، ونأخذ بذلك ثمن ما أديناه في حياتنا الدنيا العابرة، من عبادة ومن طاعة؟ أم أنها حياة روحانية لا صلة لها بالمـادة البـتة؟ أم أن أنها مزيج من الحياة المادية والحياة الروحية تأتلف فيها المادة بالروح ائتلافا منسجما متناغما؟.**

إن الذاهبـين الأولين لم يعد منهم أحد ليصف لنا الحالة في دقة دقيقة وفي تحديد محدد)) (١).

ولعلـنا نتفق بعد كل ما قدمناه علي أن الفلسفة لم تبلغ حد اليقين وأنها قنعت بالشك أو الرجحان أو الاحتمال أو اللايقين ولم تستقر ولم تطمئن فلا مناص – إذن – من أن تتجه العقول إلي النصوص الشرعية لينظروا إلي الغاية حتى يعلموا.

يقول الإمام : ((**والقرآن الكريم يتحدث عن نعيم الآخرة وعذابها فيفسر قوم وصفه علي أنه حسى وروحانى، ويفسر آخرون وصفه علي أنه روحانى بحت.**

وما حكمة الله في إيجاد هذا العالم أخلقه ليبعده ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٢).

أم خلقه ليعرفه كما قيل: كنت كنزا مخيفا فخلقت الخلق فبى عرفونى.

إن كمـال الله غنى عن أن يكون في حاجة إلي طاعة البشر، وأسمى من أن يكون في حاجة إلي أن يعرف ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾(٣).

أخلـق الله العالم اعتباطا، أم خلقه لحكمة؟ إن الله يتنزه عن أن يعمل العمل اعتباطا ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾(٤).

---

(١) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ص٣٣٨.

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦.

(٣) سورة فاطر آية ١٥.

(٤) سورة المؤمنون آية ١١٥.

تعالـــى الله عـــن ذلـــك علـــوا كبيرا، والحكمة: إنما هي تعبير عن الغرض أو الغاية وذلك ينبئ عن الحاجة والله تعالى منزه عن الحاجة.

ثـــم نعـــود مـــرة أخرى ونقول: ((لم أوجد الله العالم؟ هكذا بدون أن تصل العقول إلي كلمة فاصلة في هذا المجال وإنما تزداد ضلالا وارتباكا وريبة لأن هذه الأمور ليست في متناول العقول ، ولم يوكل إليه البحث فيها)) (١).

ثـــم يختـــتم الدكتور عبد الحليم محمود هذا البحث الدقيق بقوله: ((**أيكشف العقل عن ما وراء الطبيعة وكشف مساتيره، واختراق الحجب والصعود إلي الملأ الأعلى؟ وعقل من؟ عقلى أنا؟ أم عقلك أنت؟ إن هذه مسائل شغلت الرؤوس علي اخـــتلاف أنـــواعها من ذوات القلانس من قدماء المصريين إلي حملة العمائم إلي لابســـى القـــبعات السود، إلي أرباب الضفائر، إلي ألوف تصببت عرقا من البحث دون أن تصل إلي حقيقة**(٢).

والإمام الرازى يتكلم عن عجز العقل في البحث في الأمور الغيبية أو ما وراء الطبـــيعة فيقول: ((ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا(٣).

إلى أن يقول :

نهاية إقـــــــدام العقول عقـــــال

وأكثر سعي العالمين ضلالا

ولم نستفيد من بحثنا طول عمرنـــــا

سوى أن جمعنا قيل وقالوا(٤)

وإذا كنا نعترف مع الإمام بعدم قدرة المناهج الكلامية علي اكتساب المعرفة

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٣٤٠ .

(٢) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ص٣٣٩.

(٣) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ص٣٣٩.

(٤) المنقذ من الضلال ص ٣٦٥ .

الصـــحيحة فإنـــنا نؤكد أن الإمام في وسائل معارفه قدم لنا ميدانا للارتياد لم تطأه قـــدم، ويمكننا الآن وضع خلاصة منهجه الذي تبدل علي مر السنين. والذي ترتب علي تبدله صياغة قوانين الفكر فيما يلى:

أولا: للمعرفة منهج قويم .

ثانيا: للعلم حد دقيق يخلصه من عناصر الغموض واللبس.

ثالثا: أظهر استحالة الوثوق بالعقل عن طريق العقل نفسه.

رابعا: قد ضرب أمثلة جديرة بالاعتبار لبيان إمكان خطأ العقل في أحكامه، وأخرى لبيان إمكان خطأ الحواس.

خامســا: رد أســاس المعرفة إلي الإلهام – لا إلي العقل، **ولولا الثقة في أن الله لا يمنحنا طبيعة مزيفة، ما أمكننا التعويل علي العقل في اكتساب المعرفة** [١].

لقـــد أطلـــنا فـــي الأخذ عن الإمام الغزالى لأن إسهاماته في توضيح حدود المعـــرفة يبين لنا أن الفكر الفلسفى غرق إلي اذنيه في محاولة منه لمعرفة عالم ما وراء الطبيعة وفرصته في النجاة من الغرق لن تتاح له من خلال الحس لأن مجاله ضيق محدود ينظر فيه خلال حواسه. والعقل بموازينه ومقاييسه وقواعده قد جربوه فظهـــر لهـــم عجزه عن الوصول إلي حل ألغاز هذا العالم الغيبى، فقد رفض العقل القضية لأنها مطمع في محال.

وعلـــيه فلـــيس أمامنا طريق يكشف لنا عن المغيبات أو المساتير المحجوبة أو ما وراء الطبيعة سوى الوحى الإلهى المعصوم.

قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[٢].

---

(١) تهافت الفلاسفة للإمام الغزالى ص٣٧.

(٢) سورة النمل آية: ٦٥.

هذه صفحة من فكر الإمام الغزالى، بل هي صفحة مضيئة من تراثنا الدينى اهتمامنا بها لا يكاد يعدله اهتمام وهو اهتمام يستدرجنا لمناقشة قضية بعيدة عن موضوع وسائل المعرفة، ولكنها علي بعدها داخلة في موضوعنا مادامت تلقى ضوءا علي السبب الأساسى للنظرة اليقينية التي نظر بها الغزالى للمعرفة، وهي وجوب وجود ضامن نرجع إليه في أفكارنا، ورأينا أن سلامة الفهم ودقته تفرض علينا أن نتناول قضية – السببية – وألا نتحدث عنها حديثا عاما نملؤه بطائفة من أفكار القدماء والمحدثين،وإنما نتحدث عن القضية – السببية – حديثا علميا دقيقا يتطلب منا دقة في تحليل الأفكار، وهذا ما سنحاول أن نتبينه في السطور التالية:

شـــرح وتأصيـــل

نعود مرة أخرى إلي الإمام الغزالى وقد نختلف في مغزى فكر الإمام في قضية السببية، وسر الاختلاف ينطلق من أن لفكره في هذه المشكلة جانبا غير مفهوم عند الكثير من الباحثين، وقد تكون القضية بحاجة إلي شرح وتفصيل لنتبين في وضوح ماذا يعنى الإمام بقصية السببية.

يرى الإمام أن الاقتران بين الأسباب والمسببات ليس ضروريا، فإثبات أحدهما ليس بالضرورة إثباتا للآخر ولا نفيه متضمنا نفيا للآخر فقد يخلق الله الشبع من غير أكل والنور من غير شمس ومعنى القضية في وضوح ودقة أن الله مسبب الأسباب.

يقول الإمام : ((**الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببا وبين ما يعتقد مسببا، ليس ضروريا عندنا! بل كل شيئين ليس هذات ذاك ولا ذلك هذا ولا إثبات أحدهما متضمنا لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمنا لنفى الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر! مثل الرى والشبع، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشمس ... فإن اقترانها لما سبق من**

تقديـــر الله سبحانه تعالى، يخلقها علي التساوق لا لكونه ضروريا في نفسه، غير قابل للفوت، بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل وخلق ...)) (١).

علـــي الرغم من كثرة الأمثلة التي ضربها الإمام لعدم ضرورة الاقتران بين مـــا يعـــتقد في العادة سببا وبين ما يعتقد مسببا عين مثالا للشرح والتفصيل وهو – الاحتراق في القطن عند ملاقاته للنار، فالإمام جوز وقوع ملاقاة النار بالقطن دون الاحتراق، وجوز وقوع انقلاب القطن رمادا محترقا دون ملاقاة النار.

وأنكـــر الفلاســـفة دعـــوى الغزالى وادعوا استحالتها والتجربة الحسية تؤكد زعمهـــم، وخطأهم في الحقيقة فاحش لكنه معقول لأن المشاهدة دليلهم، إلا أن شدة تمســـك الإمـــام بمـــوقفه في إنكار أن النار هي فاعلة الإحراق في الحقيقة موقف يتضـــمن الإقناع العقلى فالمعلوم ((أن الأسباب ظواهر تقارن المسببات وليست هي علتها)) (٢).

ونحـــن لا نريد أن نقول إن الإمام ينكر صور الارتباط بين شيئين بل هو يرى أن صور الارتباط ثلاثة:

١- **العلاقة المتكافئة:** مثل العلاقة التي بين الفوقية والتحتية واليمين والشمال فعند تقديـــر فقد أحدهما يلزم عنه أيضا فقد الآخر لأنهما متضايفان، فلا تقوم حقيقة لأحدهما إلا مع وجود الحقيقة الأخرى.

٢- **العلاقة بين الشرط والمشروط:** وهي علاقة يلزم من تقدير انتفاء الشرط فيها انـــتفاء المشـــروط، ولكـــن العكس غير صحيح، لأن الشرط ضرورى لوجود المشروط ولكن وجود المشروط ليس به بل عنه ومعه.

---

(١) تهافت الفلاسفة للإمام الغزالى، ص٤٤، تحقيق وتقديم د/ دنيا .

(٢) ابن رشد، تأليف الأستاذ/ عباس محمود العقاد، ص٧٧.

مـــثال ذلـــك: علـــم الشخص من حياته وإرادته مع علمه فيلزم لا محالة من تقدير انتفاء الحياة انتفاء العلم، ومن تقدير انتفاء العلم انتفاء الإرادة.

٣- **العلاقة بين السبب والمسبب أو العلاقة بين العلة والمعلول:** فانتفاء السبب في هـــذه العلاقة يلزم عنه انتفاء المسبب أيضا ويشترط ألا يكون لهذا المسبب إلا سبب واحد فقط (١).

وفي ظل هذه الصور المختلفة للارتباط بين شيئين نجد أن الفلاسفة قد قنعوا فـــي حياتهم الفكرية بهذه الصور العقلية التي حكاها الإمام، إلا أن الإمام يرى أننا يجـــب أن نفـــرق بـــين المعرفة، بمعناها الصحيح وبين الواقع المشاهد، فالمعرفة بمعناها الصحيح ينطوى في ثناياها معنى أعمق من الواقع المشاهد وهي أن الحقيقة المطلقة الكاملة في فلسفة الإمام هي ((الله)) – جل وعلا –.

والفـــرق بين موقف الإمام في مشكلة (السببية) وموقف الفلاسفة ومن تبعهم فـــرق لا يستهان به مما يستوجب الوقوف، والمراجعة، وحتى لا يقال بأننا نغمض العـــيون عـــن الاختلافات الموجودة في الفكر نقول: إننا سنذكر للقارئ ما قد ذكره الباحثون في هذه القضية ليصبح يسيرا عليه أن يرى وجه الصواب.

والجانـــب الأكثـــر ســـوءا في فهم فلسفة الإمام يتمثل في الدكتور ((الأهوانى)) (٢) والدكتور ((أبو ريدة)) (٣) والدكتور ((صليبا)) (٤) فقد أيدوا ((ابن رشد)) في رأيه

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالى، ص١١٢، ١١٣ .

(٢) في عالم الفلسفة للدكتور، أحمد فؤاد الأخوانى، ص١١٦، ١١٧، فصل السببية بين الغزالى وابن رشد ط القاهرة ١٩٤٨.

(٣) تـــاريخ الفلسفة في الإسلام، لدى يور هامش ٣٣٩، ترجمة د/ محمد عبد الهادى أبة ريدة، ط القاهرة ١٩٥٧م.

(٤) المـــنقذ من الضلال للإمام الغزالى، المقدمة التي كتبها د/ جميل صليبا وكامل عياد، ط دمشق ١٩٣٤.

فـــي قضـــية السببية عند الإمام ((الغزالى)) بأنها لونا من ألوان الارتيابية، بل هي إنكـــار ونفـــى للعلوم بالجملة، ورأى الإمام في المشكلة رأى سوفسطائى، وسندهم المنطقى في ذلك هو أن الإمام ينكر التلازم المشاهد في المحسوسات.

والأستاذ العقاد يرى أن موقف الإمام في مشكلة السببية سوى لا يعطل العقل وفي ذلك يقول ((فرأى الغزالى في السببية ليس من شأنه أن يعطل العقل عن البحث كمـــا فهـــم بعض الجاهلين بقدره وأقدارهم، ولكنه الرأى الذي يفتح الأبواب المغلقة بحكـــم المألـــوف المســـيطر علي العقول فتنفذ منها إلي ظواهر أصدق من ظواهر ومقارنات الزم من مقارنا و ...)) (١).

والحقـــيقة أن موقف الناقدين لفكر الإمام في قضية السببية بأنه يتعارض مع الـــتلازم في المحسوسات بين العلة والمعلول، وموقف المدافعين عن فكر الإمام في مشـــكلة الســـببية بأنه يرجع رفع الارتباط بين شيئين إلي الله – سبحانه وتعالى – موقفـــين متعارضـــين لكـــنهما جائزين ومقبولين عند من لا يمعن النظر في فلسفة الإمـــام التـــي هـــي أقوى من الناقدين لها، والمدافعين عنها، ففكر الإمام الأشعرى يـــنطوى في ثناياه معنى يخلد ما خلدت البشرية، ولكى نكون علي وعي كامل بهذا المعنـــى فـــي فلســـفة الإمام الفريدة، اشتق لك نتيجة أراها حجة قوية تبين لنا الفهم الخاطئ لفكر الإمام في قضية السببية وتلك الحجة هي أن الإمام الذي بلغت دراسته للفلســـفة حد الإتقان، والذي ساهم في توجيه الأنظار إلي نقاط الضعف فيها بفضل تفكيره الشخصى وذكاءه الحاد، يكشف لنا من طرف خفى خبئ هذا الفكر الفلسفى، لأننا لو فرضنا مجرد فرض وسلمنا مجرد تسليم بما يقوله الفلاسفة ومن تبعهم في قضـــية – الســـببية – فإن موقف آخر أكثر تعقيدا يظهر لنا وهو أننا إذا فرضنا أن

---

(١) فلســـفة الغزالـــى للأســـتاذ/ عـــباس محمود العقاد، ص٩، ط إدارة الثقافة بالأزهر الشريف ١٩٦٠م.

النار هي فاعلة الإحراق في الحقيقة، وأن الحقيقة الثابتة الدائمة – الله جل وعلا – لا يجـوز له رفع الارتباط بين النار والقطن مثلا عندئذ سنجد أنفسنا أمام موافقات للفلسـفة، وانسـحابات من مجال العقيدة، لأن اعتقادنا في رأى الفلاسفة يظهر لنا صعوبات لا نهاية لها وهي أن الله جل وعلا خلق قانونا ثم تخلى هو ليحكم القانون ومعنى هذا أن الله – جل وعلا – زوال حكمه في ملكه مرة واحدة ثم ترك للأشياء خصائصـها، وإذا سـلمنا للفلاسفة بهذا فلن يبقى أمامنا غير إنكار المعجزات لأنها شيء خارق للعادة.

وعلـيه لـن يبقى أمامنا غير الحل الذي وضعه الإمام الغزالى والذي جمع فيه بضـرب مـن الإعجاز المنطقى بين الاعتراف بالتأثير بين شيئين وبين وجود ضامن يضـمن لـنا تطبيق الأفكار علي الطبيعة، فالحقيقة المطلقة الكاملة في فلسفة الإمام هي ((الله سبحانه وتعالى)) .

بعـد هذا الشرح والتأصيل لفكر الإمام الغزالى لعلنا نكون قد وفقنا في شرح مشـكلة السـببية التي عبر فيها الإمام عن عقيدته الإسلامية التي استقرت في نفسه لتصـبح فكرا يصدر من العقل ليخاطب العقل، وقد يكون من الأدلة الحاسمة علي ذلك ما وضعه الإمام من ضوابط وتحفظات لمشكلة السببية حتى لا ينبثق منها شرا لا نرضاه.

تلـك لمحة من فلسفة – الإمام الغزالى – الكبيرة الأهمية العميقة الدلالة التي أضـاءت لديكارت طريق الفلسفة الحديثة في ضوء جديد بلغ به ديكارت منزلة أبو الفلسفة الحديثة، وبلغت به الحياة الفكرية مرحلة النضوج.

الخاتمة

ذاب بحثـــي فـــي رأسي كما تذوب شمعتي الساهرة معي في محراب العلم، فاتصالي به واسع عميق يتيح لي أن أحدد أهم نتائجه، ومن هذه النتائج :

أولا: إن قضـــية المعارف العقلية عند الإمام لم تكن شيئا لا أهمية له أو من النوافل وفضـــول القـــول، ولكـــن لمـــس الإمام في الحياة الثقافية أوجها للقصور فعالجها بما يقومها.

ثانـــيا: إيمـــان الإمـــام بوجوب الدعوة إلي الفكر الإسلامي مع تبنى إضافة الحداثة وليس الاكتفاء بنقلها عمن لا يحسنون التفكير.

ثالـــثا: القضـــية كانت بالنسبة للإمام قضية عقل لأنه من المسلم به أن شريعة بلا حقيقة باطلة، وحقيقة بلا شريعة عاطلة.

رابعـــا: الإمـــام مخالف للآخرين لا عنادا منه تجاههم أو مخالفة متعمدة لهم، ولكن حرصا منه علي توضيح الفكر الإسلامى.

خامســـا: الإمـــام صـــاحب رأى ورؤية حامل لهموم الفكر وقادر علي استشراف الأخطاء وطرح البديل.

سادســـا: فكـــر الإمـــام لا يقتصر علي الجمع بين الموروث والمعاصر لكنه كان مبتكرا في صورة عقلية جديدة إيمانا منه بالابتكار ورغبة في التجديد فكان في محاورة الحواس له طرازا فريدا بين المفكرين.

سابعا: الإمام أطول من أبناء القرن الواحد والعشرين قامة لكننا نقف علي قدمين.

رحم الله الإمام ونفعنا بأفكاره والحمد لله أولا وآخرا علي أننا أدركنا منهجية عالم كنا في جنبه لصوصا.

قائمة المراجع

❁ القرآن الكريم . ❁ الحديث الشريف .

١- إحياء علوم الدين، للإمام الغزالى، طبعة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٣٩م.

٢- الملل والنحل، للشهرستانى، الطبعة الثانية ، تحقيق وتخريج محمد بدران.

٣- المنقذ من الضلال للإمام الغزالى مع أبحاث في التصوف، ودراسات عن الإمام بقلم الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود، الطبعة السادسة، مصر ١٩٦٨م.

٤- التوحيد في ضوء العقل والنقل دراسة تحليلية تفصيلية، للأستاذ الدكتور/ مبارك حسن حسين إسماعيل، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٥- الأسفار الأربعة، تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافى، ط ثانية، مصر، ١٩٧١م.

٦- لسان العرب، لابن منظور.

٧- ابن رشد، تأليف الدكتور عباس محمود العقاد، ط دار المعارف، القاهرة، ضمن سلسلة نوابغ الفكر العربى، رقم (١).

٨- الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالى، طبعة القاهرة، ١٩٦٢م.

٩- تهافت الفلاسفة للإمام أبى حامد الغزالى، تحقيق وتقديم الدكتور سليمان دنيا الطبعة السادسة، دار المعارف المصرية ١٩٨٠م.

١٠- تهافت الفلاسفة للإمام أبى حامد محمد الغزالى، تقديم وضبط وتعليق د/ جيرار جهامى، طبعة دار الفكر اللبنانى، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

١١- تجديد الفكر العربى، الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود، ط٦، دار الشروق، لبنان، ١٩٨٠م.

١٢- تاريخ الفلسفة في الإسلام، تأليف دى بور، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، طبعة القاهرة، ١٩٥٧م.

١٣- تفسير الإمام الطبرى، الجزء الثالث.

١٤- قضية التأويل في الفكر الإسلامى، المعتزلة والفلاسفة، الأستاذ الدكتور/ عبد الرحمن المراكبى ، ج١، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
١٥- فلسفة الغزالى للأستاذ عباس محمود العقاد، طبعة إدارة الثقافة بالأزهر الشريف ١٩٦٠م.
١٦- في عالم الفلسفة للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى، طبعة القاهرة ١٩٤٨م.
١٧- مشكاة الأنوار، للإمام الغزالى، تحقيق الدكتور أبو العلا عفيفى، القاهرة ١٩٦٤م.
١٨- مبادئ الفلسفة، تأليف رابو برت، ترجمة د/ أحمد أمين، ط٦، ١٩٥٨م.
١٩- مجمع الزوائد تأليف أبى بكر الهيثمى، الجزء السابع، طبعة دار الريان للتراث، القاهرة، بيروت ١٤٠٧هـ.